العدد ١٨ آب ٢٠٢٥
No. 18 – Ang 2025
المجلة العراقية للبحوث الانسانية والاجتماعية والعلمية
Iraqi Journal of Humanitarian, Social and Scientific Research
Print ISSN 2710-0952 Electronic ISSN2790-1254

التداولية في شعر الأعشى دراسـة في السياق

م. د. رياض قاسم حسن / مديرية تربية ميسان

Pragmatics in Al-A'sha's Poetry: A Study in Context .

Dr. Riyad Qasim Hassan / Directorate of Education in Misan
riyadqasim81@gmail.com

المستخلص:

تعد التداولية نظاما معرفيا متقدما يهتم بدراسة الخطاب في سياق تفاعلي، إذ تنظر إلى النص ليس مجرد بنية ، بل منظومة دلالية ووظيفية يُستخلص معناها من خلال العلاقات التواصلية والسياقية التي تربط بين المتكلم والمتلقي، فهي أداة مهمة لفهم النصوص ، وفقا للدلالات التي يرغب المتكلم في إيصالها، فضلا عن بحثها في آليات التفاعل وقوانينه، فهي مرتبطة بالسياق الذي يشكل ركيزة أساسية في ميدان التحليل اللغوي؛ لذا يعتمد عليه كعامل حاسم لفهم المعاني ، واستنباط الدلالات ، فقد حظي باهتمام واسع لدى كثير من اللغويين منذ العصور القديمة وحتى اللسانيات الحديثة، فالأعشى مشارك حقيقي وفاعل، وطرف ديناميكي في نسيج تواصلي، يتفاعل فيه مع إرثه الثقافي والأدبي، إذ ينخرط في عملية مستمرة من الأخذ والعطاء الخطابي، مستحضرا الرموز القيم والتقاليد؛ مما يعكس وعيه العميق بجذوره الحضارية، وموقعه ضمن سياق ثقافي متوارث .

الكلمات المفتاحية: التداولية ، السياق، علاقة السياق بالتداولية، أنواع السياق، عناصر السياق .

Abstract

Pragmatics is an advanced cognitive system that studies discourse in an interactive context. It views the text not merely as a structure, but as a semantic and functional system whose meaning is extracted through the communicative and contextual relationships that connect the speaker and the recipient. It is an important tool for understanding texts, according to the connotations that the speaker wishes to convey, in addition to examining the mechanisms and laws of interaction. It is linked to the context, which constitutes a fundamental pillar in the field of linguistic analysis; therefore, it is relied upon as a decisive factor for understanding meanings and deducing connotations. It has received widespread

attention from many linguists from ancient times to modern linguistics. Al-A'sha is a real and active participant, and a dynamic party in the communication fabric, in which he interacts with his cultural and literary heritage, as he engages in a continuous process of rhetorical give-and-take, evoking symbols, values, and traditions; which reflects his deep awareness of his civilizational roots and his position within an inherited cultural context.

Keywords: Pragmatics, context, relationship between context and pragmatics, types of context, elements of context.

المحور الأول : التداولية والسياق ، الحدود والمفهوم :

أولا: التداولية لغة: مأخوذ من لفظة أو مادة (دَول) التي جاءت في مقاييس اللغة تدل على معنيين أحدهما: تحول الشيء من مكان إلى آخر ، والثاني: تدل على الضعف والاسترخاء[١].

وفي الاصطلاح: تُعنى بدراسة علاقة المفردات، فهي تهتم بدراسة استعمال اللغة في الخطاب ؛ لأنّها جزء من الفرع السيميائي، بحسب رأي موريس الذي أشار إليها بقوله: هي جزء من السيمائية من خلال تمييزه لفروعها[٢] ، فالتداولية بث في اللسانيات وظيفتها الاهتمام باستعمال خواص الكلام من جهة ظروفه وسياقاته المختلفة، فضلا عن أنّها منهج لساني تداولي يحلل الخطابات عبر مرجعيات وسياقات استعمال اللغة، من أجل تحقيق المقصدية بين أطراف الخطاب ، لذا أكّد ذلك البعلبكي على أنّها فرع أساسي من فروع اللسانيات التي تعني بالتواصل بين المتكلم والمتلقي، وطبيعة العلاقة بين الكلام وسياق الحال[٣]، إذ إنّ أهم ما يميز المنهج التداولي عن بقية المناهج في اللسانيات الحديثة هو عنايته بمكونات العملية التواصلية، إذ صبّت اهتمامها وتركيزها على مقاصد الباث (المتكلم)؛ لأنّه أهم عناصر العملية التواصلية، فضلا عن أنّها أعطت السياق دورا فاعلا في هذه العملية من خلال كونه العنصر الساند والمساعد في إيضاح مقاصد المتكلم بغية الوصول إلى مُراده ومبتغاه.

ثانيا: السياق، لغة: وردت لفظة (سوق) عند ابن منظور في لسانه بدلالة التتابع والاتصال، ومنها سوق الإبل وتساوقها الذي جاء من التتابع؛ لأنّ التتابع يعني الاتصال لا الانقطاع[٤]، وجاءت هذه اللفظة في القرآن الكريم ، فقال تعالى (ونسوق المجرمين إلى جهنم ورد) [٥].

أمّا المعنى الاصطلاحي للسياق: ورد في المعجم الوسيط بمعنى التتابع[٦] ، ويتميز السياق بأنّه أداة إجرائية يتصف بها التنظير اللساني التداولي على المستوى اللغوي، فضلا عن المستويات اللغوية الأخرى ك (الثقافي ، والاجتماعي ، والسياسي...).

وعرّفه (طروس) بأنّه بعدٌ تداولي في الخطاب على وفق رؤية قرآنية تهد (كل منهج تأويلا بحد ذاته) [٧].

ويذهب (فان دايك) في تعريفه للسياق من خلال قوله القاضي بوصفه عبارة عن تجريد عالي الصورة المثالية مأخوذة من موقفٍ ما، وقد يتضمن أحداث تساعد على نحو مطرد مناسبة العبارات ، وقد تكون على سبيل المثال (أفعال كلام المشاركين وتكوينهم الداخلي ، من خلال معارفهم واعتقادهم ومقاصدهم ، فضلا عن أنّ الافعال المنجزة ذاتها والصفة الزمانية والمكانية للسياق ، كي يمكن وصفها في محل من عالم ممكن متحقق[٨].، ويذهب (أولمان) إلى أنّ السياق يعد ظاهرة مهمة في توضيح النصوص وتفسيرها ، كما يعده ظاهرة دلالية، إذا يقول:((((إذا تصادف أن اتفقت كلمتان أو أكثر في أصواتهما اتفاقا تاما فإنّ مثل هذه الكلمات لا يكون لها معنى البتة دون السياق الذي تقع فيه))[٩].

ويظهر من ذلك أنّ للسياق أثر فاعل في تحديد قيمة الكلمة وتوجيه معناها عبر سياقات متعددة ، وعناصر متنوعة كسياق المقام وسياق الموقف ، وغير ذلك مما سنورده في متن البحث. أساسي في تحقيق انسجام النص واتساقه ، وتواصلية الخطاب ، وذهب أكثر الباحثين أنّ السياق يطلق في الأصل على مقامية التخاطب بما هو المحيط الاجتماعي الذي حدث وتم فيه التلفظ[١٠].

ومن ذلك المنطلق يتضح لنا أنّ للسياق أثر فاعل في تحديد قيمة الكلمة وتوجيه معناها عبر سياقات متعددة ، وعناصر متنوعة كسياق المقام وسياق الموقف ، وغير ذلك مما سنورده في متن البحث من خلال عناصره كافة من المتكلم والمستمع ، فضلا عن الظروف المحيطة والمناسبة التي حدث فيها ذلك الكلام[١١]

عناصر السياق:

١. المرسل: هو ما يقوم به باث الخطاب من أجل التواصل ، كي يبلغ الحجة بنجاح ، شريطة أن يكون التوظيف منسجما لمعطيات اللغة ، وتزامن الظروف النفسية والمادية ، فقد وضح (جورج بول) من خلال ذلك (فلأسباب لغوية بحتة، شكّ كثير من اللغويين في إمكانية دراسة الدلالة اللغوية مستقلة عن مستعمليها، ويكفي أنْ ننظر في النظام اللغوي عن مقولات (أنا) و (أنت) و (هنا) ؛ لكي تتحقق من أنّ علم الدلالة في جانب لا ياس به)[١٢]، ونستشف من ذلك أنّ وظيفة المرسل ، إنجاز الفعل الكلامي ، أيّ

أنّه يقوم بنقل اللغة من المستوى الصوري إلى المستوى التداولي، ويبدو من ذلك أنّ المتكلم لا يمكن حجبه من الكلام بالنسبة إلى اللغة ، بل يهيمن بمكانة رفيعة عالية الشأن في المحور الخطابي[١٣]

٢ـ المرسل إليه: هو ما يكتمل فيه توجيه الخطاب له والتأثير فيه عند إعداد الخطاب، فلا بدّ من عرض دوره في سياق الخطاب ، وقوة فاعلية ذلك الخطاب من حيث التداول[١٤].

والواضح من ذلك أنّه ينبغي أن يكون هناك توافق بين المعطيات الذهنية لدى المتحاورين في المعلومات السابقة، فضلا عن موقعية المخاطب من حيث بيئته وثقافته ومجتمعه، وانسجام وتلاؤم القدرات اللغوية مع عناصر السياق، فيفترض وجود طرفين اثنين على أدنى تقدير، يتفاعل أحدهما مع الآخر بالفعل أو بالإمكان ، والمقصود المتحدث والمستمع[١٥]، وبمعنى آخر أن تكون هناك معرفة لغوية لدى المخاطب ، بما يسنح له بفهم الخطاب ضمن المعطيات السياقية .

وتبعا لذلك يشكل المخاطب المتغير السياقي الذي يمكن المتكلم من اختبار أساليب مختلفة في التعبير، فضلا عن الأساليب اللغوية ، لذلك أوضح (كارتر) أنّ السامع عند سيبويه ليس مجرد عنصر أساسي في بناء الخطاب فقط ، بل له أثر محوري في توضيح وتحديد بنيته اللغوية ومحتوياته[١٦].

٣ـ العناصر المشتركة بين المتخاطبين (المرسل والمتلقي):

يعتمد كل من المتكلم والسامع في فهم الخطاب على خلفيات مستمدة من العالم الخارجي (البيئة المحيطة)، كالسياق المادي والواقعي والاقتصادي والديني، والمعارف المتقاسمة بين المتكلم والسامع، بما يتضمنه من عناصر ثقافية وتداولية، تنجز دورا محوريا في بناء الخطاب، بوصفها الركيزة الأساسية التي يتأسس عليها الفهم والتأويل ، وتحقيق المقاصد التواصلية؛ لأنّ وجود هذه القاعدة المعرفية المشتركة بين المتحاورين صادر من التجارب والسياقات الاجتماعية والدينية، كذلك لأنّ المتكلم لا ينتج خطابه في فراغ ، بل ينطلق من معطيات سياقية متعددة تحيط به تشمل الزمان والمكان والحالة النفسية والاجتماعية، التي بوصفها عناصر تؤثر في بناء المخاطب وتوجيه المقصد بشكل مباشر، وهذه العناصر نفسها يعتمد عليها المتلقي في عملية التأويل، إذ يعيد تمثيلها في ذهنه لفهم المعاني الضمنية والمقاصد الكلامية، مما يتيح له التفاعل مع الخطاب بإدراك تام لمقاصده ومعانيه، ويمكنه الوصول إلى ما يرمي إليه المتكلم سواء على مستوى الإفهام أم الإقناع.[١٧].

ومن جهة أخرى يرى (فندريش) أنّ السياق هو من يحدد معنى الكلمة ويعطيها قيمة في الموضع الذي ترد فيه فهو يقول: ((والسياق هو الذي يفرض قيمة واحدة بعينها على الكلمة، على الرغم من المعاني المتنوعة التي في وسعها أنْ تدل عليها، والسياق أيضا هو الذي يخلص الكلمة من الدلالات الماضية التي تدعها الذاكرة تتراكم عليها ويخلق لها قيمة حضورية))[١٨] ، ما يعني أنّ للسياق دور فاعل ومهم في تحديد معنى الكلمة ، وعلاقتها بما يجاورها من الكلمات في التركيب.

ونلاحظ من ذلك أنّ السياق لا يتشكل بصورة عشوائية، بل يرتكز على مجموعة من العناصر الأساسية التي تؤدي وظيفة محددة في تشكيله وتنظيمه، وهو الذي يجعل لها أثرا محوريا أساسيا رئيسا في بناء المعنى داخل العملية التواصلية، ومن أهمها:

١ـ الفاعلون في عملية التواصل (المتكلم ، السامع)

٢ـ العناصر اللغوية وغير اللغوية.

٣ـ ساحة التفاعل (المكان) الذي حصل فيه هذا التفاعل.

٤ـ التفاعل البنّاء بين المشاركين في الموضوع ، فضلا عن معارفهم اللغوية والأدوار التي يلعبونها؛ مما يسهم في إثراء العملية التواصلية وتحقيق أهدافها. ٥ـ مقصدية المتكلم. ٦ـ القيمة أو المرجعية الاجتماعية[١٩].

يرى (بروان ويول) أنّ السياق يتجلى من خلال مجموعة من العناصر الأساسية التي تتفاعل فيما بينها ، من أجل تشكيل البنية التواصلية، وتشمل هذه العناصر: المتكلم بوصفه منتجا للخطاب، والسامع بوصفه الذي يوجه إليه الخطاب ويتلقى مضمونه، ثم مضمون الرسالة نفسه بما يحمله من معانٍ ودلالات ، فضلا عن الجانب الزمني الذي يحدد لحظة التلفظ، والمكان الذي يحدث فيه التفاعل، كذلك نوعية الرسالة التي تُحدد طبيعتها ووظيفتها سواء كانت إخبارية ، أم طلبية أم تعبيرية، وهذه العناصر المجتمعة هي الركائز التي يُبنى عليها الفعل التواصلي وتُستنبط منها دلالات الخطاب[٢٠].

المحور الثاني : علاقة السياق بالتداولية:

إنّ التداولية بوصفها علما يهتم بتحليل اللغة في الاستعمال، إذ لا يمكن فهمها إلا من خلال السياق، أي لا يمكن مقاربتها أو استيعابها خارج إطار السياق الكلامي والمقامي؛ لأنّ هذا السياق هو الذي يتيح إدراك

المقاصد الحقيقية للمتكلم، ويمكّن السماع من التمييز بين ما يُقال صراحة وما يُفهم ضمنا، أي بين المعنى الظاهري للكلام والمعنى المقصود الذي قد يكون مضمرا خلف الألفاظ الظاهرة، فالسياق هو الركيزة الأساسية التي تعتمد عليها التداولية في سعيها من أجل فهم أبعاد الخطاب، فهو العنصر الحيوي والمحوري الذي تستند إليه التداولية في تفسير الخطابات ، والخلفية التي تمنح الألفاظ معانيها الفعلية، فضلا عن تمكينها الباحث من تأويل المعاني غير المباشرة، فمن خلاله نستطيع فهم المقاصد الحقيقية للمتكلم، ويمنح اللغة بعدها الوظيفي في التفاعل الواقعي الحاصل بين المتخاطبين، وتأكيدا على ذلك يجب أن تكون العوامل الخاصة والمتكلمين ، فينبغي مراعاة العوامل الشخصية (الذاتية) بين المتكلمين والعوامل المحيطة بالخارج.

وتعليقا على ذلك نلحظ أنّ السياق الخاص يرتبط ارتباطا وثيقا بالسياق العام، إذ لا يمكن فهم السياق الخاص أو تفسيره بدقة إلا ضمن إطار السياق العام الذي يحيط به ، فوجود السياق العام يعد الإطار الشامل الذي يضمن تماسك السياقات الخاصة، في حين غيابه يجعل السياق الخاص غير قابل للفهم أو التحديد بوضوح؛ لأنّ التفصيلات الخاصة لا تكتسب معناها الحقيقي إلا من خلال الانتماء إلى السياق العام الذي يحدد الإطار الزمني والمكاني والثقافي والاجتماعي الذي يحصل فيه التفاعل [٢١]، ما يتضح أنّ للسياق أثر واضح في التداولية، إذ إنّ أيّ تغيير في سياق مفردة ما يتغير معه القصد والمعنى.

وأشار بعض الباحثين إلى أنّ العلاقة بين السياق والتداولية علاقة تكاملية عضوية، إذ تقوم التداولية بوصفها علما في استعمال اللغة في سياقتها المختلفة على إدماج السياق بوصفه عنصرا مركزيا لفهم المعنى سواء عبر الإشارات السياقية المباشرة أم من خلال توسيع الدلالة إلى ما يتجاوز المعنى الظاهري ، والسياق يشكل مفهوما تتحدد من خلاله الوظيفة التواصلية، مما يجعل العلاقة بينهما علاقة تداخل وتفاعل لا تنتهي[٢٢] ، فالوظيفة والعلاقة بينهما علاقة تعبيرية؛ لأنّ التداولية لها جذور راسخة وحضور فاعل منذ القدم في التراث اللغوي والنقدي القديم، إذ تظهر ملامحها في أطروحات البلاغيين والنقاد الكلاسيكيين الذين تناولوا الظواهر اللغوية في ضوء السياق والمقام، ووقفوا عند مقاصد المتكلم وأحوال المخاطب، وفيه إشارة إلى أنّ مفاهيم التداولية لم تكن غائبة عن الفكر العربي، بل كانت حاضرة ضمنيا في تحليلاتهم للأساليب البيانية والوظائف التواصلية للخطاب، وقد ذكر الآمدي في موازنته عن التوجه النقدي الدقيق القاضي في اعتماده أسلوب المفاضلة بين الشعراء، لا لمجرد عقد المقارنات الشكلية ، بل لتوليد دلالات جديدة ومعان مبتكرة تتجلّى من عمق النصوص، مستندا إلى مبدأ أنّ الألفاظ في ذاتها ليست حكرا على شاعر دون آخر

، بل هي ملك مشاع يمكن لأي شاعر توظيفها (التعبيرات متاحة دون قيود) ، وإنما يكتمل التفاضل الحقيقي في طريقة النسج والتوليف بينها ؛ لإنتاج معنى يتجاوز الظاهر ، مما يظهر وعي الآمدي المبكر بالطاقة الإبداعية الكامنة في التركيب والأسلوب[٢٣].

ومن خلال التداولية يمكننا التمييز بين ملفوظين : الأول: يتعلق بمعنى الجملة الحرفي أي تحليل اللغة، وهو ما تشير إليه الكلمات بشكل مباشر.

الثاني: هو المقصد التداولي أو البنية التي يقصدها المتكلم من خلال استعمال تلك الجملة؛ لتشمل الأبعاد التفاعلية والسياقية للخطاب، وتنبثق هذه الفكرة بوضوح تام في الدراسات اللغوية الكلاسيكية كـ (علم المعاني ، والبديع، والبيان)، حيث يهتم البلاغيون والنقاد العرب القدماء اهتماما خاصا ، من أجل الفصل بين دلالة الألفاظ والمعنى المقصود، مما يدل على وعيهم العميق بالأبعاد التداولية ، نلاحظ من ذلك أنّ الوسائل البلاغية تتضمن طرائق تراثية تسير عليها، فكلما توافرت المعاني بشكل غني ومتكامل داخل النص أو الخطاب ، زادت قيمة الوسائل التي تعد من أقوى وأرقى الأدوات التعبيرية؛ وذلك لأنّ فاعلية هذه الوسائل لا تُقاس بجمالها اللغوي فقط ، بل بمدى التأثير العميق الذي تتركه في نفس المتلقي، حيث تثير في وجدانه مشاعر وتجارب تزيد من فهمه وتقديره للمعنى المراد، فتبرز من ذلك أهمية استعمال الوسائل البلاغية المتنوعة كي تصل الرسالة بشكل أقوى، مما يجعل مستولى تأثيرها في المتلقي معيارا أساسيا لتقييم كفاءتها وأهميتها[٢٤].

إجمالا لا يمكن القول إنّ التداولية والسياق بينهما ترابط شعري ، فهي تدرس استعمالات اللغة في سياقها، وتستند على السياق في فهم مقاصد الكلام، وبما أنّ المدونة التي نحن في صدد تحليلها هي مدونة أدبية، فلا بدّ لنا من القول إنّ التداولية تؤكد على أنْ يدرس الأدب في ضوء السياقات التي أنتجته سواء كانت مقامية أم حالية أم ثقافية، وعلى هذا الأساس فإنّ النص الأدبي لم يعد في ضوء النظرية التداولية منعزلا عن السياقات المنتجة له.

المحور الثالث : أنواع السياق:

١. السياق الاجتماعي: هو ما يحدث من ظواهر أو أقوال، أو أفعال في بيئة اجتماعية معينة، فهو يهتم بالعلاقات القائمة بين السياق الاجتماعي ، واستعمال اللغة ، فضلا عن أنّ هناك نصوص يكون إنتاجها من خلال المواقف الاجتماعية، وتتسم بطابع أكثر شيوعا؛ لأنّ المقامات لها طبيعة عامة أو خاصة ،

فضلا عن أنّها تتميز بخصائص بنيوية أو سياقية تبرز من خلالها الملفوظات بوصفها أفعالا تلفظية ذات مقصدية تواصلية ، إذا ينظر إلى النص بوصفه تجسيدا لعملية تواصلية لغوية لا تقوم فقط على وفق النسق الاجتماعي الذي تُطبق فيه ، بل إنّ هذا التركيب (النسق) الاجتماعي ذاته يتشكل ويتحدد تبعا للنمط الذي توظف فيه اللغة ، وتُمارس بها أدوات التعبير في سياق تفاعلي[٢٥] ، فالسياق الاجتماعي بما فيه من محاور وعلاقات متشابكة ، ينطلق في عمقه من العلاقة البنيوية العميقة التي تربط المتكلم بالنسيج الاجتماعي الذي يشكل سياق انتمائه، حيث لا يمكن فهم الخطاب اللغوي إلا من خلال ارتباطه العضوي بالبنية الاجتماعية التي تعد مرجعيته الفكرية ، مما يجعل كل إنتاج لغوي امتدادا لتلك البنية الاجتماعية التي توجه تعبير المتكلم ، فالمتكلم لا يُنظر إليه ككيان فردي منعزل ، أو كصوت لغوي منفصل عن محيطه، بل يعد نتاجا ديناميكيا لتفاعلات المجتمع، إذ يعكس من خلال ملفوظاته التجربة الجماعية والقيم الثقافية؛ لانّ حضور المتكلم هو انعكاس لموقعه ضمن شبكة العلاقات الاجتماعية، لذا فهو تعبير عن وعي اجتماعي متشكل داخل ظروف تاريخية وثقافية محددة[٢٦] .

عناصر السياق الاجتماعي:

١. العادات والتقاليد، كأساليب التحية ، والطقوس، والأعياد.

٢. المتكلم هو العضو البارز في المجتمع وله مكانة خاصة.

٣. المتكلم من منظور السياق الاجتماعي له وظيفة اجتماعية ، فهو ليس نشاطا فرديا منغلق.

٤. اللغة المستعملة: الكلمات المتداولة

٥. العلاقات الاجتماعية ، نحو: علاقة أفراد الأسرة مع بعضهم

ونلحظ مما تقدم أنّ المقامات الاجتماعية بحسب طبيعتها ووظيفتها وظروف إنتاجها تتباين، حيث كل مقام يختلف عن الآخر ؛ بسبب العوامل الثقافية والتواصلية والسياقية التي تحكم البنية، وفي ذلك تتحدد معيارية النص الخطابي ضمن هذه المقامات ، فلا يمكن فصل النص عن النسق الاجتماعي الذي يُنتج فيه؛ لأنّ كلا المفهومين يتبادلان التأثير، فالنص يتشكل ضمن شروط المقام، والعلاقة بينهما هي علاقة تفاعل وتداخل يعيد من خلالها كل منهما تشكيل الآخر ضمن نسيج اجتماعي لغوي حي، وقد أُطلق عليه الغرب (سياق المقام)؛ لأنّه جامع لكل السياقات الخارجية التي تؤثر بنحوٍ أو بآخر في تحديد المعنى[٢٧].

وذهب (هاليداي) إلى أنّ السياق الاجتماعي هو كل العوامل غير اللغوية التي لها بعض الوقع على النص ذاته[٢٨].

قال الأعشى:

ونُبِّئتُ قيسا ولم أبلُه كما زعموا خيرَ أهلِ اليمنْ

رفيعَ الوسادِ طويل النجا دِ ضخم الدّسيعةِ رحبَ العطَنْ

فجئتك مرتادَ ما خبَّروا ولولا الذي خبّروا لم ترنْ

فلا تحرمني نَداكَ الجزيلْ فأنّى امرؤٌ قبلكُم لم أُهنْ [٢٩]

يركز الأعشى في هذه الأبيات بأنّهم قد أبلغوه بخبر عن قيس ، أو أنّه سمع عنه خبر بأنّه من أفضل أهل اليمن وأكرمهم، لكنّه لم يلتقِ به ولم يجرّبه بنفسه، وبمعنى أدق لم يحصل أيّ لقاء بينهما، وما نقله الشاعر من صفات عن قيس هو أنّه رفيع الشرف والعلو في النسب، فضلا عن طوله الذي عُدّ من صفات الفروسية والدسيعة تعني كثرة السهام والقوة، زيادة على ذلك نجده يمدح مدحا مباشرا ، من أجل المكافأة وهذا سلوك شائع في السياق الاجتماعي.

نلحظ من ذلك أنّ الأبيات السابقة كشفت عن ملامح السياق الاجتماعي الذي تجلّى ووضّح المقام، فضلا عن القيم القبلية المتمثلة بالكرم والشجاعة والطول والقوة، وكذلك المديح الذي ينتظر منه المكسب المالي ، واعتداده بنفسه واضح من خلال أنّه كان كثير التنقل، فقد عظّم الممدوح قيسا وحدد مكانه ضمن محدد معروف (اليمن)، فضلا عن كنايته له بالرفعة والكرم من خلا ذكره لـ (العطن) وهو مكان لمورد الماء والمنزلة بين قومه، فنجد فيه التوكيد على الصفات التي يحملها الممدوح، وما نراه من الوظيفة التداولية نجد أنّ الشاعر (المرسل)نقل خبرا عن رجل كريم بين قومه، وخطابه موجه إلى جمهور يشاركه في المعرفة السياقية القبلية، فأعلن عن نفسه بأنّه لم يلتق به في استعماله كلمة (زعموا) أي فيه نوع من الشك، ولكن في بيت آخر نجده يمدحه بمديح صريح، مما يدل على التوازن بين النقل والتقدير الشخصي، فالغرض من الخطاب التداولي هو بناء صورة اجتماعية إيجابية عن الممدوح، وذكره للمعاني الضمنية يصرّح بأنّه أرسل رسالة غير مباشر للمتلقي بأنه رجل معطاء، من خلال استعماله لغة جزلة وتراكيب تدل على الكرم فقد تحر الشاعر من الشكل الظاهري الى المدح التام.

ونجد في البيتين الأخيرين تدرجا تداوليا مؤثرا ؛ لأنّه بدأ بدهشة ، وانتهى بتذكير للكرامة ، فقد ذكر(فجئتك مرتادا) و (ولولا خبروا) ، و(فلا تحرمني) ، (فإنّي امرؤ)، فالتدرج هنا بدأ من التعجب ، ثم التأكيد على السبب، وكذلك الدعاء والطلب، مرورا بكرامة الممدوح. وبهذا فإنّه استعمل السمعة كوسيلة تواصل غير مباشرة، والخبر الذي تناقل عن كرم قيس جعل التداولية مرجعية ضمنية يعتمد عليها الشاعر لتبرير زيارته وطلبه، وهذا ما يعرف بالتبرير السياقي.

وقد عرض الأعشى المعاني الضمنية من خلال أنّه طلب المال ، لكنه لا يقول (أعطني) مباشرة، بل يشير إليه من خلا تمجيده بالسمعة الطيبة ، فضلا عن تلميحه إلى أنّ رفض العطاء قد يهين المتكلم، فهذه عناصر حيوية في الثقافة القبلية يتفاعل معها الخطاب ليبدو طبيعيا مع السياق.

٢ـ السياق الثقافي والديني:

هو المنظومة الشاملة للمفاهيم والتصورات، والأنماط السلوكية التي ترسخت عبر التاريخ ضمن مجموعة بشرية، وتشمل اللغة والدين والعادات والأساطير والفنون والتقاليد التي تؤثر في إنتاج المعنى وفهم الخطاب ، أي هو الإطار المرجعي الحضاري والفكري، فقد نال الأعشى معرفة واسعة ومعمقة بمجالات مختلفة من الحضارة؛ نتيجة تفاعله المستمر واحتكاكه بالثقافات المتنوعة والبيئات الغنية التي يسودها الترف من خلال التنوع الدلالي واللغوي، إذ تتداخل المعاني وتتعدد الألفاظ في سياقاتها، ما أتاح له فهما عميقا لمظاهر الحياة وأوان التعبير المتعددة [٣٠]، فهو شاعر ملتزم بقبيلته الجاهلية، وظلّ ملتزما برؤيته الفكرية والدينية الخاصة، ولم ينخرط في المعتقدات التي صادفها لدى القبائل الأخرى، على الرغم من معايشته لكثير من الديانات والطقوس السائدة في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام.

وقد انماز السياق الثقافي بالمساعدة في تأويل النصوص وفهمها فهما دقيقا ، إذ يمكّن المتلقي من استيعاب المعاني والدلالات ضمن حدود القيم السائدة في المجتمع، فضلا عن كشفه عن الطريقة التي يتفاعل بها الأفراد مع الخطاب ؛ لما تمليه عليهم منظومتهم الثقافية من عادات وتصورات وقيم ومعتقدات، من دون الرجوع إلى مرجعية خارجية لا تنتمي إلى تلك البيئة الفكرية والاجتماعية.

ويتضح في شعر الأعشى حضور لافت للألفاظ والمفاهيم ذات الطابع الديني، التي تتغلغل في نسيج النص ؛ لتكون إطارا معنويا يعبّر عن الخلفية العقائدية والروحية التي تشكل مضمون الخطاب ، حيث تنعكس من خلال هذه اللغة طقوس الإيمان وحدود الحلال والحرام ، فضلا عن الرموز المقدسة التي تحمل دلالات

غيبية وروحية عميقة، لذا تتجسد سمات السياق الثقافي في العناصر العقائدية الكبرى ، نحو الإيمان بالنبوة والملائكة، وكذلك في الرموز الدينية المحورية كالكعبة ، والكتب السماوية كالتوراة والقرآن الكريم، ما يمنح النص بعدا معرفيا وروحيا متجذرا في الثقافة الدينية الواسعة ،قال الأعشى:

ألم ترَي الحضرَ إذ أهلُهُ بنُعمى وهل خالدٌ مَنْ نَعِمْ[٣١]

المقصود بالحضر ، هو ما ذكره الطبري في تاريخه هو (جبل في تكريت)، أي بين دجلة والفرات ثمة مدينة ، يُقال لها: الحضر ، وفيها رجل من الجرامقة، حيث إنّ ملكه قد بلغ الشام[٣٢] ، فهذه المدينة العراقية كانت تتميز بالحضارة الكبيرة السائدة في العصور القديمة، وسكانها يعيشون في ترف ورخاء وازدهار، ثم ذكر أنّه لا أحد يبقى خالدا في هذه الدنيا ؛ لأنّ كل شيء هالك وماثل إلى الزوال، فقد جاء بصيغة (ألم ترِي) باستفهام أراد به الإخبار، وفائدته التنبيه إلى تغير الأحوال، فضلا عن ذكره (إذ الظرفية) التي نجد فيها إشارة مرجعية إلى فترة الرخاء السابقة، فاستعمل السؤال التقريري، من أجل تعزيز فكرة زوال النعيم، ثن أقرّ سؤالا بلاغيا آخر يحمل استفهاما استنكاريا بذكره لـ (وهل خالدٌ) المتولد من معنيين ، الأول: خالد بن الوليد. الثاني: المعنى الرمزي للبقاء والخلود، لذا ذكر فعل الإنجاز اللغوي (ترى)، في حين إنّ السياق الثقافي الوارد في البيت يشير إلى رمزية القوة والغنى والحضارة، وعلى الرغم من قوتها قد انهارت، فضلا عن ذلك ذكره لثقافة الموعظة والعبرة، فهو يقترب من المعنى القائل (لا شيء يدوم)، وبعبارة أدق قد ركّز على العلاقة بين اللغة والسياق من خلال ذكره للأداء الكلامي الإخباري التحذيري، حينما ذكر المقام التداولي الذي ذُكِرَ فيه الشاعر بوصفه واعظا ، والمخاطب الذي يظنّ أنّ النعمة دائمة فنراه قد وظّف الضمير (أنت) الذي قصد فيه الناس جميعهم، وإجمالا لذكره للفظتي (الحضر، خالد) إنهّا أسماء مشحونة بثقافة تاريخية تداولية فيها إشارة إلى حضارة قد زالت ؛ لأنّ الحضر (افتراض مسبق) ، وبالتالي أنّ الشاعر وظّف لغة شعرية في سياق خطابي تداولي حواري، فضلا عن التوجيهات غير المباشرة من حيث التحذير.

وذكر كذلك السياق الديني في شعره ، إذ قال:

إذا أنت لم ترحلْ بزاد من التقى ولا قيتَ بعد الموتِ مَن قد تزودا

فإياك والميتاتِ لا تأكلنّــها ولا تأخذنْ سهما حديدا لتفصدا

وصلِّ على حين العشيّات والضحى ولا تحمد الشيطان والله فاحمدا

ولا السائلَ المحرومَ لا تتركنّه لعاقبة ولا الأسيرَ المُقيّدا [٣٣]

يدعو الأعشى إلى التعاليم الإسلامية، ويقتبس آيات قرآنية في شعره، نحو ((وتزودوا فإنّ خير الزاد التقوى)) [٣٤] ، و((حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير))[٣٥]، و((أما السائل فلا تنهر)) [٣٦] ، فهذا كله يتضمن البعد الديني؛ لوجود معاني الإسلام داخل شعره ومثاليته الخلقية[٣٧].

أعطى الشاعر في أبياته موعظة قوية للمتلقي ، ونصحه على أن يكون جاهزا للآخرة من خلال عمله الصالح قبل أنْ يأتيه الموت ، فقد شبه الأعشى الحياة برحلة وطعامها التقوى، فلا بدّ من حمل هذا الزاد؛ لذا استعمل أسلوبا سهلا ، لكنّه عميق الأثر، وفي البيت الثاني ذكر وصية أدبية وتعليمية إسلامية، إذ نهى عن أكل الحيوانات التي تموت من دون ذبح شرعي، وقتل الحيوان بسهام من دون ذكر اسم الله عليه، لذا حذّر المخاطب في (إياك) ؛ لأنه أراد في بيته معاني الورع والاحتياط في الدين ؛ حرصا على الطهارة، وكذلك قوله الذي احتوى على دعوة صريحة وبارزة إلى الرحمة والإنسانية، إذا يطلب من المتلقي ألّا ينهر السائل عند سؤاله عن حاجته، مع علمه بأنّه لم يملك شيئا، فقد أكّد على الأسير المقيّد الذي أسّره العدو وقيّده، فهو يؤكد على عدم ترك الفقير المحتاج إذا كان هذا العمل من باب الرحمة ، أو باب أداء الواجب، فينصح بمساعدة الأسرى والمحتاجين وهو من الأبعاد الدينية التي يجب على الإنسان الالتزام بها ، ومن جهة التحليل التداولي الذي يختص بفهم المعنى ، ومعرفة مقصدية المتكلم الذي تحدث عن مقام الوعظ والإرشاد، فأراد دفع المخاطب إلى العمل الصالح، إذ ضمّن فعلا تحذيريا (إذا لم تتزود بالتقوى فإنّك تندم بعد الموت) ، وفعلا إرشاديا (عليك أيها الإنسان أنْ تأخذ من هذه التقوى زادا لحياتك)، ومن جهة مبدأ التعاون: فالشاعر ملتزم به من حيث:

١ـ الملاءمة: في حديثه عن التزود بالتقوى من خلال سياق التحذير من الموت.

٢ـ الوضوح: عبارته واضحة لا تعقيد فيها.

والملاحظ من ذلك البيت أنّه يحمل فعلا لغويا ذا قوة تعبيرية وتأثيرية نلمس فيه الإقناع والتأثير، وما نجده في البيت الثاني من التأثير التداولي في سياقه، فنراه متضمنا وظيفة تحذيرية مباشرة، من خلال أسلوب النهي والأمر في :

إياك ـــ تحذير

لا تأكلنّها، لاتأخذنْ ـــ نهي وتوكيد بنوني التوكيد.

ويؤكد الشاعر بأنّ المخاطب عارف بالأحكام الشرعية، لذا لم نجده يشرح (الميتات)، اقتصر تحديده على (الأمر والنهي)، وهذا له دلالة واضحة على الاشتراك المعرفي الديني بين الطرفين؛ لأنه فعل طلبي فيه تحذير من عاقبة المقصر والقصد منه التأثير في سلوك المتلقي ؛ لأنّ جملته جملة توجيهية.

وتأسيسا على ما تقدم نجد أنّ جمل البيت الشعري من ناحية السياق اللغوي كلها إنشائية (التحذير والنهي)، أي أنّها تؤدي وظيفة لها أثر داخل الخطاب ، ومن ناحية المقامية وأثرها في المخاطب أنّه لا تعنيه (الميتات)، وهو ما يدعي بـ (الافتراض الضمني).

وفي بيته الأخير يوضح أنّه لا تترك الفقير الذي يسأل الناس وهو في أمسّ الحاجة، فينبغي عليك ألّا تؤخر مساعدته، ولا تتركه، فضلا عن الأسير المقيد بالقيود، فقد وضح ما يقصده بـ (الأسير) هو المعنى العميق الذي يعني رمز المكروب أو المظلوم الذي يوحي معناه بالمعاناة الشديدة ، والمبالغة في دفع المتلقي إلى التعاطف وعدم إهمال المحتاج ، أو تأخير فعل الخير.، فالسياق اللغوي الضمني يشير إلى أنّ (السائل) فاعل من الفعل (سأل)، و (المحروم) هي الصفة التي تدل على شدة الحاجة؛ لذا فهو أسلوب تركيبي يحمل النهي الموجه.

أمّا تداوليا فهناك مقصد للمتكلم إنّه لا يكتفي بوصيةٍ، بل أصدر أمرا أخلاقيا ملوما من أجل مساعدة الفقير المحتاج.

ونلحظ من ذلك القوة الإنجازية لهذا الخطاب الذي جاء بصيغة النهي ، فقد أدّى إلى فعل إيجابي، فيفترض أنّ المخاطب عارف فاهم مَنْ (السائل والمحروم)، وعنده الإدراك الواضح من حيث معنى(الأسير المقيد) ، أيّ أنّه قد حصل اشتراك معرفي بين الطرفين وهو من ركائز التحليل التداولي.

الخاتـمـة

يعني هذا المنهج التداولي في تحليل النصوص في شعر الأعشى، بوصفها منظورا يتيح استكشاف البنية التواصلية للنصوص، وذلك من خلال تحليل العوامل الزمانية والمكانية في شعره، أو عبر تمثّل الأصوات

الحاضرة في النص، من المتكلم والسامع، الذي كشف عن أثر العوامل السياقية في تفعيل الأدوات اللغوية ، وتحديد نظامها ووظيفتها داخل شبكة التفاعل الخطابي الي يجريها الشاعر مع المتلقي وبيئته الثقافية.

ويبدو من ذلك أنّ التحليل التداولي بوصفه فرعا من اللسانيات المعاصرة يُظهر قدرة عالية على تحقيق الإقناع ، وتعميق فهم الدلالة ، وقد تجلّى ذلك بوضوح في شعر الأعشى، إذ بدا واعيا بالسياقات الموجود في خطابه، ومستثمرا هذه السياقات في بناء المعنى وإبراز الدلالات الكامنة وراء الألفاظ والتراكيب، ما يعكس فطنة لغوية وحسا تداوليا متقدما. وقد استثمر الأعشى السياقات الاجتماعية والثقافية ومعرفته بالعادات والتقاليد عبر التوظيف المتقن لها في سياقاته الشعرية، ما أغنى تجربته الشعرية عبر الاستعانة بما وهبه الله من موهبة خلّاقة ، وذهن مُبدع، وخيال صادح، وأسعفه في كل هذا تمكنه من لغته الشعرية في توظيف معارفه في إنتاج نصوص شعرية مؤثرة في المتلقي.

الهوامش

١ـ ينظر: مقاييس اللغة: مادة: دول: ٣٥١.

٢ـ ينظر: استراتيجيات الخطاب ، مقاربة لغوية تداولية: ٢١.

٣ـ ينظر: معجم المصطلحات اللغوية:٣٠، وينظر: المدارس اللسانية المعاصرة: ١٦٦.

٤ـ ينظر: لسان العرب: مادة: سوق: ٢١٥٣، المجلد الثاني، ج/ ٢٢، و مقاييس اللغة مادة (سوق): ٤٧٦.

٥ـ مريم: ٨٦.

٦ـ ينظر: المعجم الوسيط: مادة (سوق) ٤٦٠.

٧ـ ينظر: النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية: ٤.

٨ـ ينظر: النص والسياق(فان دايك): ١٧.

٩ـ دور الكلمة في اللغة: ٥٤

١٠ـ ينظر: معجم السرديات: ٢٥٥.

١١ـ ينظر: علم الدلالة النظرية والتطبيق: ١١١.

١٢ـ استراتيجيات الخطاب: ٤٥ ـ ٤٦.

١٣ـ eluer(1985) iaprogmatiguelinguistigue mathan paris

١٤ـ ينظر: استراتيجيات الخطاب: ٤٧.

١٥ـ ينظر: النص والسياق: (فان دايك): ٢١١.

١٦ـ ينظر: أثر سياق الكلام في العلاقات النحوية عند سيبويه: ٣٠ـ ٣١.

١٧ـ ينظر: استراتيجيات الخطاب: ٤٩.

١٨ـ اللغة (فندريش): ٢٣١.

١٩ـ ينظر: مدخل إلى اللسانيات التداولية: ٤١.

٢٠ـ ينظر: لسانيات النص، مدخل إلى انسجام النص: ٢٩٧.

٢١ـ ينظر: تداولية النص، قراءة في كتاب التداولية النصية من أنواع الخطاب إلى النصوص، شبكة المعلومات.

٢٢ـ ينظر: محاضرة عن التداولية واقعية لغة أم تواصلية تركيبية: شبكة المعلوماتية

٢٣ـ ينظر: الموازنة بين الطائيين:١٤٩.

٢٤ـ ينظر: الأسلوبية والتداولية، مداخل لتحليل الخطاب: ٨٥.

٢٥ـ ينظر: السياق والنص من البنية إلى القراءة: ٨٧.

٢٦ـ ينظر: مناهج النقد الأدبي: الحديث: ٩٦.

٢٧ـ ينظر: علم الدلالة(مختار عمر): ٦٩، وينظر: فصول في علم الدلالة (فريد عوض حيدر): ١٢١.

٢٨ـ ينظر: الدلالة السياقية عند اللغويين: ١٧٩.

٢٩ـ الديوان: ٢٥.

٣٠ـ ينظر: مقدمة ديوان الأعشى: ص : ش.

٣١ـ الديوان: ..٤٣

٣٢. ينظر: تاريخ الطبري: ١/ ٣٩٥.

٣٣. الديوان:..١٣٧

٣٤. البقرة: ١٩٧.

٣٥. المائدة: ٣٣.

٣٦. الضحى: ١٠.

٣٧. ينظر: تاريخ الأدب العربي ـ العصر الجاهلي: ٣٤٢.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم:

أثر سياق الكلام في العلاقات النحوية عند سيبويه، سارة عبدالله الخالدي ، لبنان ـ بيروت، الجامعة الأمريكية، ٢٠٠٦م.

استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، عبد الهادي الشهري، دار الكتاب الجديد ـ ليبيا، ط١، ٢٠٠٤م.

الأسلوبية والتداولية مداخل لتحليل الخطاب، د. صابر الحباشة، عالم الكتب الحديث ـ الأردن، ٢٠١١م

تاريخ الأدب العربي ـ العصر الجاهلي، شوقي ضيف، دار المعارف ـ مصر ، ط٦، ١٩٧٤م.

تاريخ الطبري، محمد بن جرير الطبري ، تحقيق: محمد أبو الفضل، الناشر: دار المعارف ـ مصر ، ط٣، ١٩٦٧م.

تداول النصية، قراءة في كتاب التداولية النصية من أنواع الخطاب إلى النصوص: شبكة المعلوماتية.

الدلالة السياقية عند اللغويين، عواطف كنوش المصطفى، دار السياب للنشر، ط١، ٢٠٠٧م.

دور الكلمة في اللغة، ستيفن أولمان، ترجمة كمال بشر، مصر ـ القاهرة، ١٩٦٢م.

ديوان الأعشى الكبير، شرح وتعليق: الدكتور محمد حسين، الناشر: مكتبة الآداب بالجماميز .

السياق والنص الشعري من البنية إلى القراءة، علي آيت أوشان ، دار الثقافة مؤسسة النشر والتوزيع، مطبعة النجاح الجديدة ـ الدار البيضاء، ط١، ٢٠٠٠م.

علم الدلالة النظرية والتطبيق، فوزي عيسى، ورنيا فوزي عيسى، دار المعرفي الجامعية ـ الاسكندرية، ط١، ٢٠٠٧م.

علم الدلالة: أحمد مختار عمر، عالم الكتب . القاهرة، ١٩٩٨م.

لسان العرب، لابن منظور، المحققون : عبد الله علي كبير، وهاشم محمد الشاذلي، ومحمد أحمد حسب الله، وسيد رمضان أحمد، دار المعارف ـ القاهرة.

لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، محمد خطابي ، المركز الثقافي العربي . الدار البيضاء، ط١، ١٩٩١م.

اللغة، فندريش، ترجمة: عبد الحميد الدواخلي ، ومحمد القصاص، مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٥٠م.

محاضرة عن التداولية واقعية لغة أم تواصلية تركيبية ـ شبكة المعلوماتية.

المدارس اللسانية المعاصرة، نعمان بوقرة، مكتبة الآداب ـ مصر، د. ط، د. ت.

مدخل إلى اللسانيات التداولية، الجيلاني دلاش، ترجمة: محمد يحياتن، ديوان المطبوعات الجامعية ـ الجزائر، ١٩٨٦، د.ط.

معجم السرديات، محمد القاضي وآخرون، الرابطة الدولية للناشرين المستقلين ، د. ت ، د. ط.

معجم المصطلحات اللغوية، رمزي منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٩٩٠م.

المعجم الوسيط، أخرجه: إبراهيم مصطفى، وأحمد حسن الزيات، وحامد عبد القادر، ومحمد علي النجار، أشرف على طبعه: عبدالسلام هارون

مقاييس اللغة، لابن فارس، اعتنى به: د. محمد عوض مرعب، وفاطمة محمد اصلان، دار إحياء التراث العربي، للطباعة والنشر/ ٢٠٠٨م.

مناهج النقد الأدبي الحديث، إبراهيم السعافين خليل الشيخ، دار النشر والتوزيع للتسويق والتوريدات ـ القاهرة ، ٢٠١٣م ، د. ط.

الموازنة بين الطائيين، الآمدي، تحقيق: السيد أحمد صقر، وعبدالله أحمد محارب، دائرة المعارف ـ القاهرة، ط١، ١٩٩٠م.

النص والسياق استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، فان دايك، ترجمة: عبد القادر فنيقي، إفريقيا الشرق ـ الدار البيضاء، ١٩٩١م

النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية، محمد طروس، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء ، ط١، ٢٠٠٥م.

eluer(1985) iaprogmatiguelinguistigue mathan paris.